

أطراف النهار

لوحة جاد؛ اللغة والمعنى!

حسن البطل*

ابتسموا في وجه الولد جاد. تغامزوا فيما بينهم.. ثم نالوا منه بألسنتهم. أنا سأدافع عن لوحته المدهشة.

أصل القصة منذ الأزل هذا الثنائي: تلميذ/ أستاذ. أصل الحياة إلى الأزل: جد/ ابن/ حفيد.. وأما أصل الحضارة (من جذرها إلى جذعها إلى أفنانها) فهو كلمة واحدة: «التبادع» حسب ما نحتها الشاعر سعيد عقل (إن لم أكن معلماً لعشرة؛ وإن لم يبيزني واحد من العشرة.. فأنا لست مبدعاً).

ماذا إذا كان الفنان الشاب جاد سلمان تشرب أسلوب الفنان المخضرم خوان ميرو؟ ماذا إن قلنا: هذا المهر من ذاك الفحل.. هكذا كان جوابي على تشكيليي من جيلي دفاعاً عن تشكيلي من جيل ابنتي؟.

الألمعي مايكل أنجلو أنكر فضل معلمه غيرلاندايو عليه، ولم ينكر فضل راعيه، وأكبر رعاة الفنون في فلورنسا وحاكمها لورنيزو. الشاب جاد لا ينكر فضل ملهمه (ملهمه لا معلمه) خوان ميرو (مات ميرو عندما كان جاد في سن الفطام).. غير أن «بصمة» ميرو باقية.. إلى أن تعلوها «بصمة» جيل من التشكيليي الشباب في عمر جاد.

ماذا قال ميرو؟ «صرفت عمراً حتى استعدت فطرية لوحات الأطفال» منذ متى كان جاد طفلاً (ولد ١٩٨٣ تخرج من جامعة النجاح ٢٠٠٥). متى يتوقف الرسامون الشباب عن رسم «البعبع»؟ القدماء رسموا المارد بعين واحدة، فلماذا لا يرسم بيكاسو المرأة بثلاثة أثناء؟ أليست «غيرنيكا» إعادة تخليق كابوس واقعي جداً؟

السيدة ماريان، مديرة المركز الثقافي الفرنسي - نابلس، وجدت شهباً بين «بعبع» جاد سلمان وبعبع «مارسو بيلامي» للبلجيكي فرانكان. أنا، مثلاً، قد أزعم أن بعبع جاد هو الغولة «أم الخلاخيل». كل الغيلان هلامية، وبالأسود والأحمر (لا علاقة لذلك باسم رواية ستاندال الشهيرة).

أياً كان «بعبع» جاد، فهو يسبح في فضاء مضيء، أو يتنفس حيزاً (عنوان معرض جاد هو «حيز آخر»). جاد نزق لأنه شاب، فهو يدلق اللون. جاد غير نزق لأن لوحته متماسكة، متينة (هذا مدهش لحدائثة سنه). لا تتافر في وحدة الشكل/ التشكيل، بل تضاد دياكتيكي (وحدة الأضداد).

القصة إياها ببداية أخرى: كان الكسندر سولداتوف سفير موسكو ببيروت. فوجئت نحاة (هي زوجتي) إذ سألتها: هل أنت تلميذة النحات الإنكليزي هنري مور؟ قالت: لست تلميذته لكنه من أساتذتي. بعد سنوات، أمام «معهد العالم العربي» بباريس ستقدم النحاتة/ التلميذة، حائزة جائزة الأردن، منحوتة يدشنها الرئيس شيراك والملك حسين.

ذائقة الناس مزمنة. تريد فهماً مباشراً للوحة الفن الحديث. تريد لوحة موزونة مثل خطوات رقصة «السلو».. في بحث الناس عن «معنى اللوحة» ينسون «لغة اللوحة».

اشتكت هذا للفنان تيسير بركات. وضع حقيته الجلدية ووضع سلسلة مفاتيحه عليها.. وقال: انظر.. أليست هذه لوحة؟ قلت نعم.. لأنني سأسأل: لماذا هناك كل هذه المفاتيح لقفل واحد هش. الحقيقة أن السؤال قاد إلى المسألة. السؤال كان عن الفنان التشيلي ماتا/ماتا/ متى ولوحاته المليئة بأساطير الهنود الحمر (رسم ثلاثية رائعة عن مجزرة صبرا وشاتيلا أراها تبرز لوحة غيرنيكا لبيكاسو). يمكن أن ترسم كلمات شاعر فضاء آخر لـ «معنى اللوحة». مثلاً: تسأل الشاعر غنتر غراس: هل الفضاء هو القشرة الداخلية للبيضة؟/ متى نخرج من البيضة؟.

سؤال اللوحة الحديثة لا حل له. هل الخيال أرحب أم الفضاء أرحب. مشكلة المتلقي ان سقف خياله هو قشرة البيضة الداخلية. مثلاً: ترون في مسلسل «ستار تريك» مخلوقات فضائية غير إنسانية.. جميعها أذكى من الإنسان، ولكن ليست أجمل منه. لماذا؟ خيال الإنسان لا يتصور مخلوقاً فضائياً أجمل منه (استراح وقال: خلق الله الإنسان على صورته).

أذهب إلى اللوحة مع جواب مسبق.. وغادر اللوحة مع أسئلة تستولد أجوبة. تتغير الكلمة حسب موضعها من الجملة، وهذه حسب موضعها من المعنى.

حسن البطل؛ كاتب صحفي فلسطيني، صاحب مقال يومي (أطراف النهار) / جريدة الأيام الفلسطينية.
تاريخ نشر المقال 22 أيلول 2006، جريدة الأيام الفلسطينية/Volume 11 No. 3837